الثعلب

للكاتب الايطالى المعاصر: اجنازيو سيلونى

ترجمة : ابراهيم فتحى

كان دانيل فى حظيرة الخنازير يقدم عونه الى أنثى خنزير جاءها المخاض حينما سمع زوجته فيلومنا تناديه من داخل المنزل الذى يبعد قرابة ثلاثين ياردة · وجاءه صوتها : « دانيل ·· هناك من يريد التحدث اليك » ولكنه لم يعبأ بندائها رغم أنها كررته ، فقد كان منهمكا فى عمله كل الانهماك، فوق أنه أصدر أوامره بألا يزعجه أحد مهما تكن الاسباب · وفى النهاية حينما لم تتلق زوجته ردا كفت عن النداء ·

وكان دانيل قد اتخذ كل دواعى الحيطة لكى يتم الميلاد فى يسر بقدر ماتسمح الظروف ولكن مسألة الميلاد من المسائل التى لايقين فيها · فهو قد جعل أنثى الخنزير تتبع نظاما خاصا فى الطعام منذ اليوم السابق ، كما أعطاها جرعة كبيرة من زيت الخروع مغالاة فى الحيطة ، ومع ذلك فقد كان يخشى أن يصبح الميلاد عسيرا ، ويصيب الضرر مؤخرة الأنثى فيؤدى ذلك الى نضوب اللبن · وكان قد استدعى أجوستينو لمساعدته ، واجوستينو وان يكن يعيش هنا فى تسينو (سويسرا) منذ سنوات الا أنه قادم من برجامو (ايطاليا) فهو يحترف البناء ولكنه يستطيع القيام بأشد الأعمال غرابة حينما ينتهى موسم البناء ·

وبدأت الولادة بداية مبشرة ، فبين أيديهما خنازير ثلاثة صغيرة ضئيلة كأنها الفئران، ولم يكن أمام أجوستينو مايقوم به الا أن يجد اسما مناسبا لكل خنزير صغير ، ولكن الخنزير الرابع الصغير لم يرغب بعد فى القدوم ، فاضطر أجوستينو أن يمسك بالأم من فمها بينما مد دانيل ذراعه لاخراجه لكى يفسح الطريق لما سيجىء ·

وقال أجوستينو مشيرا الى الخنزير الصغير الذى لم يرغب فى المجىء ·· سنسميه بنيتو (موسولينى) ·

فأجابه دانيل : مستحيل ·· فقد بعثاه الى متجر ايطالى

فرد أجوستينو : أيها الحيوان الذى يحسب لكل شىء حسابا ·

وفى تلك **اللحظة ارتفع نداء لويزا** صغرى بنات **دانيل : بابا هنا من يرغب فى الحديث اليك** ·

وواصل دانيل رعايته للخنازير ، فقد كان من الضرورى تجنب كل احتمالات العدوى . وهو فوق ذلك كان قد أفهم أسرته ، أنه حينما يعمل يستغرق فى عمله ولا يحب أن يزعجه أحد لأى سبب من الاسباب ، لذلك فلم يجب نداء لويزا أيضا ، واستمر فى مزاولة عمله ، فوضع الكائنات الصغيرة فى عناية داخل صندوق كبير مبطن بالقش ثم غطى الصندوق بغطاء من الصوف . أما أجوستينو فكان يزيل ما تخلف عن الولادة من آثار ، ويعيد الحظيرة الى نظامها الاول . ثم ارتفع صوت سيلفيا كبرى بنات دانيل منادية: بابا ... هنا من يريد التحدث اليك ، وكانت تسير فى الطريق متجهة الى الحظيرة .

ووصلت بعد لحظة تصحبها كاترينا الحائكة ، وهى عانس تقدمت بها الأعوام نزحت من فلورنسة ، ولكنها كانت تعمل منذ سنوات طويلة فى مينوسيو لكسب قوتها ، وكانت تكسبه فى أكثر الاوقات ، لا بحياكة الثياب بل باعادة تفصيلها وباصلاحها . وانفجر دانيل صائحا حينما وقعت عيناه على كاترينا: هل تقصدين أن تقولى انكم تزعجوننى منذ ساعة كاملة من أجل هذه المرأة ؟

ولم يكن من المعروف عن كاترينا سرعة البديهة فى التعبير عن نفسها .. ولم تأبه سيلفيا بلوم والدها وأجابت : كاترينا تريد أن تتحدث اليك .

واتجه أجوستينو وسيلفيا ناحية المنزل ، تاركين كاترين وحدها معدانيل وبدأت كاترينا حديثها : « أنت تعلم أننى امرأة لا أهتم بغير شؤونى الخاصة» فرد دانيل ونبرات صوته لا تدعو الى التشجيع فى الاسترسال : « لا علاقة لى بشئونك » . فأجابت : « ولكنك تعرف أننى لم أتدخل طول سنوات معيشتى فى تسينو فى شؤون أحد » . فرد دانيل وهو يستدير متجها الى المنزل « هذا الامر لا يعنينى » .

وبمجرد أن اتضح لكاترينا أن دانيل مصمم على ألا يصغى اليها قررت أن تتخلى عن المقدمة وأن تدخل فى الموضوع: « جاء لزيارتى سيد ايطالى وطلب منى أن أصبح جاسوسة » .

وتوقفت خطوات دانيل .

وأخذت كاترينا نفسا عميقا ، وبدأت تحدثه عن هذا السيد الايطالى الذى التقت به مصادفة ذات مرة فى أحد المكاتب فى لوكارنو وعما قاله لها :

« لقد قال لى أنت تعيشين فى تسينو منذ سنوات ، وأنت تعرفين كل الناس، وعملك يتطلب منك أن تذهبى الى كل مكان ، فأنت تدخلين مئات المنازل ، وتسمعين مئات المحادثات . وأنت امرأة عجوز وحيدة ولا يخشى أحد أن يقول أى شىء فى حضورك .. فأجبته بأن هذا صحيح .. الجميع يحترموننى لأننى لا أهتم الا بشئونى الخاصة .. فواصل حديثه بنفس الطريقة ثم قال : اذا كنت مستعدة لكى تجمعى معلومات عننشاط بعض الايطاليين المعادين للفاشية الذين يعيشون فى تسينو بين اسكونا وبيلنزونا ، فانك تستطيعين أن تأملى فى ادخار شىء من المال لشيخوختك » .

وكان دانيل قد استفاق الآن من ذهوله وظل يحدق فى كاترينا متفحصا

وهى ترتجف وتنشج بالبكاء طوال حديثها قائلا : « لماذا تأتين الى بهذه القصة ؟ » . فتساءلت المرأة : « ماذا تقصد ؟ » فيجيب دانيل : « أنا من تسينو ولا تعنينى شئونكم الإيطالية .. لماذا أتيت الىّ ؟ من أرسلك ؟ » .

فأجابت المرأة وهى تنشج : « ولكنك تعرفنى منذ ثلاثين عاما ، وتعرف أننى أكسب قوتى بطريقة محترمة ، وأنت تعرف أننى لا أهتم الا بشئونى الخاصة» فقاطعها دانيل رافعا صوته : « ان ما أريد أن أعرفه هو من أرسلك الى ؟ » . فأجابت كاترينا : « لم يرسلنى أحد » ثم أضافت بهدوء : « أنا آسفة لازعاجك .. لن أمكث أكثر من ذلك » .

واستدارت فأولته ظهرها ، وبدأت تسير مبتعدة فى الطريق المؤدى الى جوردولا وميوسيو ، وتبعها دانيل وواصل الحديث معها بعد لحظة : « اذا لم يكن قد أرسلك أحد ، فلماذا أتيت الى ؟ » . فقالت كاترينا وهى تنظر الى الأمام مواصلة السير : « كنت أبحث عن النصيحة » . فسألها دانيل : « أى نوع من النصيحة ؟ » فأجابت المرأة بعد أن كفت عن السير : « هل أقبل عرض السيد الايطالى أم أرفضه ؟ أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل . لم يسبق لى فى حياتى كلها أن أصبت بهذا القلق والاضطراب .. فاذا وافقت الرجل كسبت مالا قليلا عن طريق الاساءة الى الذين لم يسيئوا الى أبدا . واذا رفضت فسيعتبروننى معادية للفاشية ، ويضطهدوننى بكافة الطرق .. أنت تعرفنى منذ ثلاثين سنة وتعرف أننى لست فاشية ولست معادية للفاشية . وأنت تعرف أننى أكسب عيشى دائما بطريقة محترمة ، وأننى لا أهتم الا بشئونى الخاصة » .

وظل دانيل غارقا فى أفكاره .. مواصلت كاترينا سيرها بآلية ، ودانيل يتبعها من جديد . وكان أجوستينو ينتظر فى نهاية الطريق .

وقال دانيل للمرأة : « لا تخافى .. اخبرى أجوستينو بما قلته الآن ، وافعلى ما يطلبه منك » . وظل دانيل يرمقهما وهما يسيران فى اتجاه جورولا ، ثم عاد الى حظيرته ليرعى خنازيره ..

***

وذات يوم كان دانيل يعمل مع ابنته فى أعراش الكروم حينما ظهر أجوستينو ، ولم يكن دانيل قد رآه منذ مولد الخنازير الصغيرة ، وكان دانيل قد انتهز فرصة يوم من أيام الفراغ لانقاذ كرومه من أن تدمرها الآفات ، فكان يبحث عن مواضع الاصابة مستخدما فرشاة معينة ، وابنته تتبعه حاملة وعاء يملؤه الماء المغلى ، تصبه على مواضع الاصابة . وكان أجوستينو يقود عربة نقل تحمل طوبا . فأبطأ صائحا : «هذا العمل يسير سيرا حسنا » . فأجاب دانيل دون أن يدرك مقصده على الفور: « أى عمل ؟ » . فقال أجوستينو وهو يلوح بيده مواصلا قيادة سيارته : «أنت تعلم ما أعنيه » . فهز دانيل رأسه وقال لابنته « ان الايطاليين رائعون كرماء على سجيتهم شجعان ولكنهم يتكلمون كثيرا جدا » وعقدت ابنته سيلفيا العزم على أن تقول شيئا قد رغبت فى قوله منذ زمن طويل فقالت : « يا أبى ، أنا أعلم أنك تفعل الكثير من أجل حرية ايطاليا رغم أنك لا تتحدث عن ذلك .. وانني

أشتاق كثيرا لان اساعدك » فأجابها الوالد : «اجمعي هذه الفروع ثم اشعلي فيها النار . هذا هو كل ما يجب عليك أن تقومي به الآن » . وأطاعت سيلفيا، وتطلع دانيل اليها وهي تقبل من بين الكروم منحنية وهي تجمع الفروع في حرص وعناية صانعة منها كومات صغيرة .. لقد احتفلت بعيد ميلادها العشرين في نوفمبر ، وظل دانيل يتطلع اليها يملؤه الفخر والخوف فقد كانت هي أثمن ما يملكه وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يكون على يقين من مصيرها .

***

لم يلتق دانيل بصديقه أجوستينو بعد ذلك الا صباح أحد أيام الآحاد بعد مرور فترة قصيرة . وكان دانيل وفلومينا يتحدثان عن ثعلب، يشن غارات ليلية على حظائر الدجاج في كادينازو وروباساكو ، وكانت المرأة تقول : «لقد وجدوا ما يقرب من خمسين دجاجة مقطوعة الرقبة » فعلق زوجها قائلا : « اذا كان يقطع الرقاب ويمتص الدماء فلن يكون ثعلبا بل ابن عرس » ، وأقبل سائق عربة من كادينازو وسألوه الرأي، فأدلى بدلوه : انه ثعلب لا شك في ذلك. بل ربما كان هناك أكثر من ثعلب ، ففي احدى الحظائر لم يترك الا عددا من ريش الذنب » فقالت فلومينا لزوجها « علينا أن نحرص على دجاجنا .. في العام الماضي كان المرض هو الذي أتى عليها.. ولم يكن ينقصنا من المصائب الا الثعلب» فقال دانيل « سننصب فخا لاصطياده» وفي تلك اللحظة أقبل أجوستينو فانتحى بدانيل جانبا وأخبره أن الامور تسير على ما يرام » فقد عملت كاترينا بنصيحتي وفعلت ما أشرت عليها به ، وسيأتي الجاسوس لالتهام الطعم ...

يجب أن تكون في انتظاري فتساءل دانيل وقد ثارت عواطفه « ما هي فكرتك ؟ » فأجاب أجوستينو « يجب أن ننصب فخا » ولم يستطع دانيل أن يمنع نفسه من الابتسام عند سماع كلمة « فخ » فهي الكلمة الوحيدة في حديثه مع أجوستينو التي سمعتها فلومينا ، وسرعان ما وثبت عليها ، فقالت لأجوستينو : « الفخ لا يكفي ، فالثعلب ماكر ، ويظل يدور حول المكان باحثا قبل أن يقرب الطعم ، وحتى بعد ذلك فهو لا يلتقطه بأسنانه فورا ، ولكنه يحاول أن يجذبه اليه بأقدامه . انها فكرة حسنة أن ننصب فخا من الصلب ولكن لابد أيضا من أن ننثر حوله بعض الطعام السام ، ولم يفهم اجوستينو للوهلة الاولى ماذا تهدف اليه تلك القصة . فالتفت دانيل الى زوجته قائلا « لا نستطيع التأكد من جدوى الطعام السام أيضا.. فمهما يكن الثعلب جائعا فهو لن يأكل قطعا متناثرة من الطعام ، وحتى اذا ابتلع قطعة من اللحم السام أو جوزة سامة فليس من المؤكد أن السم سيحدث أثرا . فلا أحد يعرف الكمية المناسبة من الاستركنين لقتل ثعلب مجهول . فاذا كان ثعلبا قويا وكان الاستركنين ضعيفا فلن يصاب الا بآلام عابرة في المعدة لا تمنعه من افتراس الدجاج ، أما اذا كان الاستركنين أقوى من اللازم فكل مايحدث هو أن يتقيأه الثعلب ويفرغ معدته ويزداد اشتهاؤه للدجاج » وقال أجوستينو بعد أن أدرك آخر الامر عن أي شيء يدور الحديث « بعبارة أخرى ، فمن المستحيل أن يصطاد الانسان ثعلبا » فأجاب دانيل : « انه ليس

مستحيلا ولكنه أمر شديد الصعوبة » ثم أضاف « ولم يحدث أبدا أن كان الكلام كافيا لاصطياد ثعلب » .

وعادت فيلومنا الى المنزل حيث كانت صغرى بناتها تناديها ، وذهب الرجلان الى البستان لمواصلة حديثهما . فقال أجوستينو : « وأخيرا وافقت كاترينا على أن تقوم بالعمل بعد زفرات وتنهدات كثيرة ، ولقد ذهب الجاسوس الايطالى لزيارتها مرة ثانية أمس ، وترك لها عنوانا فى « بالانزا » لتستخدمه فى الكتابة اليه حينما تتجمع لديها الانباء» وتساءل دانيل : « ألم يعطها أسماء ويطلب أن تتجسس عليها بشكل خاص» فأجاب أجوستينو : « الظاهر أن ذلك لم يحدث حتى الآن ولكنه طلب منها أن تعرف أسماء العمال الايطاليين الذين يعبرون الحدود كل يوم ليتصلوا بأى من الذين تحيط الشكوك بأفكارهم السياسية أو باللاجئين . وقد أخبرها أيضا أنها ستحصل على مبلغ كبير من المال اذا استطاعت أن تساعده فى اكتشاف أسماء الذين يهربون الكتب الثورية والمنشورات الى ايطاليا من سويسرا» وتساءل دانيل : « ألم يخبرها بأن شخصا معينا كان موضع ريبته ؟»

وأجاب أجوستينو : « فيما يبدو لم يحدث ذلك حتى الآن » ثم أضاف « لقد وعد كاترينا بأنه سيبحث عن وسيلة تمكنها من الاستقرار فى زيورخ اذا ما حدث وارتبط اسمها بشىء يدينها الناس من أجله . لقد عاشت فى تسينو منذ ثلاثين عاما وهى بطبيعة الحال تحلم دائما بأن تعاود الحياة فى مدينة كبيرة» وتساءل دانيل « هل تعتقد كاترينا أن لى أية صلات بالايطاليين الثوريين ؟ .

فأكد له أجوستينو أنها لا تعتقد : «لقد ظلت فى كل مرة أتحدث اليها تتنهد وتتأوه وتخبرنى بأنها لا تهتم الا بشئونها الخاصة ، وأنها لن تفعل غير ذلك فى المستقبل وأن السنيور دانيل رجل مهذب حقيقة وقد تعطفت عليك بأنك من أصلاء أهل تسينو ، وأنه لا علاقة لك بالسياسة ومن الممكن أن تثبت ذلك » .

وكانت سيلفيا ترقب والدها من حجرتها فى الطابق الأعلى وهو يتحدث الى أجوستينو ونادت « هل أستطيع النزول » ؟ فقال الاب « تستطيعين بطبيعة الحال » . وجاءت الفتاة الى البستان وحينما اقتربت من الرجلين غيرا موضوع الحديث ، وتحدثا عن الطقس .

وكل مساء كان دانيل ينصب فخه المصنوع من الصلب خارج حظيرة الدجاج وينثر قطع الطعام السامة ، ولكن الثعلب لم يظهر له أثر . وكذلك كانت الحال مع ثعلب أجوستينو فلم يكن متعجلا فى أن تصطاده الشراك التى تنصب له وعلى أية حال فان دانيل لم يسمع شيئا عنه . وكان دانيل معتادا أن يقول ويعيد القول : «ان حياة رجل الريف هى حياة من الصراع المستمر ، صراع مع الطقس غير المواتى والآفات والطيور ، ولكن أسوأ أنواع الصراع هو الصراع مع الثعلب » وبعد أن انتهت الحملة على آفات الكروم ، تفرغ دانيل لاستئصال آفات أشجار الفواكه ، فخفف عنها ما تنوء به من فروع ذابلة، وحاء يابس ميت وطحالب، كما كانت سيلفيا تقتل ديدان الاخشاب

التى كانت تستخرجها من الثقوب مستخدمة قطعة من السلك وحينما تم تطهير كل سيقان الاشجار ، جاءت فلومينا وطلتها باللون الابيض .

وقال دانيل لابنته : الآن قد قمنا بحماية الاشجار من التربة حتى الفروع ولكن كيف نحميها مما يهبط من أعلى من السماء ؟

وفجأة لمح أجوستينو عند الباب الامامى ، وهو يمازح سيلفيا منتظرا قدوم الاب فتساءل دانيل : « ما هى آخر الانباء ؟ » وأجاب الرجل « لقد نصبنا الشرك » .

ـ والثعلب ؟ ـ سنصطاده الليلة . وتنهد دانيل : « لو كان فى استطاعتنا التأكد من اصطياد كل الثعالب ! . ومضى أجوستينو يسهب فى شرح الطريقة التى سيتم بها اصطياد الثعلب: « أرسلت كاترينا تخبره أن لديها أنباء هامة ورتبت أن تلتقى به فى الساعة التاسعة من هذه الليلة فى «ريفابيانا» بالقرب من البحيرة ، خارج الكنيسة القديمة ، وسأحافظ على الموعد وسيحافظ عليه معى اثنان آخران » وتساءل دانيل « ألا تعتقد أنه يحسن ابلاغ البوليس » فرد عليه الآخر « سيكون هذا تصرفا أخرق .. فسيترامى الخبر الى القنصلية الايطالية فى الحال وسيفلت الثعلب » ولم يكن دانيل يعرف اجابة على هذا الاعتراض ، فمن المعروف أن هناك عناصر لا ثقة فيها بين صفوف البوليس . ولكن المخاوف كانت تساوره نتيجة للمصاعب والاخطار التى ستحدق باللاجئين الايطاليين فقال « يجب أن يقوم رجال من أهل تسينو بالعمل » ولكن أجوستينو اعترض قائلا : « ان معنى ذلك اشراك عدد كبير .. ثم ان من الواجب اقامة فرخ ايطالى للثعلب الايطالى » .

وفى هذا المساء سافر دانيل بالقطار الى لوكارنو ، وكان يسير متمهلا حوالى الساعة العاشرة الى جوار البحيرة فى اتجاه ساليجى منتظرا أجوستينو الذى سيقبل حاملا أخبار انجاز العملية . وحوالى الساعة العاشرة والنصف أقبل « لوكا » وهو نجار من مينوسو بدلا من أجوستينو قائلا : لقد أصيبت يد أجوستينو بجرح طفيف ، فلم يأت حتى لا يجذب الأنظار الى ضمادته . وكان دانيل شديد التلهف : وماذا عن أخبار الشخص الآخر ؟ .

« تركناه ملقى هناك . لقد جاء الى مكان اللقاء ومعه اثنان تركاه منفردا مع كاترينا بعد أن وعداه بالرجوع بعد ساعة ، فانتظرنا وراء الكنيسة حتى اختفينا فى اتجاه «نافجنا» . وفى تلك الأثناء بدأت كاترينا فى الأنين والتنهد واخبار الجاسوس الكثير من الهواء القارع .. وبين الأكذوبة والأكذوبة واصلت احاطته علما بأنها لم تتدخل ولن تتدخل فى شئون أحد ، وأنها لا تعرف الا شيئا واحدا وهو أن الكتب والأوراق الثورية تهرب الى ايطاليا من دير الفرنسيسكان، دير مادونا ديل ساسو فى لوكارنو !» . ودفعت تلك القطعة الروائية البارعة دانيل الى أن يضحك من كل قلبه . وواصل لوكا : « ومضى أجوستينو وحده اليه وتركنا وراء الكنيسة وكان من المقرر أنه لن يستخدم مسدسه الا اذا حاول الرجل أن يبدأ باستخدامه

واتجه أجوستينو اليه كما لو كان يمر بمحض الصدفة ، ولما كان الظلام سائدا فقد أشعل سيجارة وتعرف عليه فى ضوء عود الثقاب فناداه : « هذا وجه مالوف أنت جاسوس ايطالى • وألقى بالسيجارة بعيدا وبدأت المعركة وغادرت مخبأنا فاسرعت كاترينا بالفرار » وسأل دانيل : « هل اشتركت فى المعركة ؟ » فأجاب لوكا « لم يكن ذلك ضروريا •• لقد واصلنا المراقبة لنتأكد من أن أحدا لم يأت • وسرعان ما تغلب أجوستينو على خصمه ، فقد طرح الرجل أرضا وظل ينهال باللكمات على رأس الرجل بما يكفى لتحطيم صخرة • كنا نعرف مقدار قوة أجوستينو ولكن لم تكن لدينا فكرة عن كل هذه الكراهية التى تملأ قلبه » • فقال دانيل : « لا تنس أن الفاشست قتلوا أخاه • ولكن كيف أصيبت يده ؟ » •

ـ لقد عضها الجاسوس • فقد أعوى بأسنانه على يد أجوستينو اليسرى وظل متشبثا بها ، فصوب أجوستينو بيده الاخرى ضربات مجنونه الى فك الجاسوس ولكنه ظل متشبثا بيد أجوستينو ، فقبض أجوستينو على عنقه وظل يخنقه • وتساءل دانيل فزعا : هل قضى عليه ؟ ـ يبدو الأمر قريبا من ذلك ـ اذن يجب أن يختفى ربما كان الافضل أن يذهب الى فرنسا •

وقرر دانيل نتيجة لهذا التحول فى الاحداث أن يقضى الليل فى لوكارنو ثم يذهب فى الصباح الى بلنزونا ، ولكى يجنب أسرته أن تقع فريسة للقلق ، تحدث اليهم مستخدما تليفون مقهى فردت سليفيا فى الحال : انه لحظ عظيم أن تتكلم •• منذ ساعة وأنا أبحث عنك فى كل مكان ، وتساءل دانيل مندهشا: ماذا حدث ؟ فأجابت سيلفيا : لم يحدث لنا شىء • ولكن سيارتين اصطدمتا على مقربة من المنزل فى الطريق الى جورجولا وأصيب رجل باصابات خطيرة •• وقال الطبيب ان اصابته من الخطورة بحيث لا يمكن نقله بعيدا ، فقام الناس ببعض الاستفسارات وأجمع الجيران على أن منزلنا هو المنزل الوحيد الذى يمكن أن يقيم فيه مؤقتا •• وقالت أمنا انها لا تستطيع أن نستضيف فى منزلنا رجلا غريبا وأنت بعيد ولكننى أجبتها بأنك كنت ستوافق بكل تأكيد ، فقال دانيل « بطبيعة الحال » أين يقيم الآن ؟ ، وأجابت سيلفيا فى الطابق الاول فى حجرتى ••• وأنا أنام الآن مع لويزا •

ـ هل حالته خطيرة ؟ ـ لم يقطع الطبيب برأى وسيرسل الليلة ممرضة رغم أننى عرضت أن أقوم بكل شىء ـ من أين أقبل هذا الرجل •• ما اسمه ؟ وأوضحت ابنته أنه لا يزال غائبا عن الوعى • ولابد أن ينتمى الى أسرة عميقة لأن الطبيب أراد أن يقدم لأمى نقودا على الفور • ورد دانيل : « يؤسفنى أننى لن أستطيع الحضور الى المنزل اليوم لمساعدتكم ، فأنا مضطر للبقاء هذه الليلة فى لوكارنو والى أن أذهب فى الصباح المبكر الى بلنزونا لانجاز عمل عاجل ولكنك تعلمين أننى أثق بك بكل ما يطلبه منك الطبيب •• قومى به على طيب خاطر » •

وخاطب دانيل أسرته فى صباح اليوم التالى ليسأل عما اذا كان الجريح لا يزال على قيد الحياة فأجابته لويزا لأن سيلفيا كانت قد ذهبت لشراء بعض الأشياء « تحسن المسكين قليلا وجاءت ممرضة فى

الليلة الماضية ولكن سيلفيا لم تنم الطبيب جاء منذ لحظة ، وأمسك الطبيب بالسماعة فقال له دانيل : يا دكتور كن حر التصرف فى استخدام المنزل .. يؤسفنى أننى لست معكم فى مثل هذا الوقت » ورد الطبيب : « أستطيع أن أقول أن الرجل سيشفى بكل تأكيد . لقد أصيب فى رأسه أصابات بالغة الخطورة .. ولكن يمكن القول الآن انه لن تكون هناك مضاعفات .. ولابد من تعويضكم عن كل المصروفات التى تحملتموها . وسأل دانيل : ماذا عن الرجل ؟ أين يسكن أهله ؟ فقال الطبيب انه مهندس ايطالى من بولونا اسمه امبرتو ستلا ربما تكون قد سمعت عنه لقد جاء الى سويسرا ليدرس توليد الطاقة الكهربية ، فقال دانيل كائنا من كان الرجل ، فأسرتى ومنزلى فى خدمتك ولم يضيع دانيل وقته فقد حاول فى بلينزونا على الفور ان يكشف الى أىمدى وصلت تحريات البوليس بالنسبة الى محاولة القتل فى ريفابيانا فى الليلة الماضية ، وكان من الذكاء بحيث لم يبدأ هو الحديث فى الموضوع بل كان ينتظر أن يبدأ الآخرون . ثم مضى لمقابلة محاميه واصطحبه الى المحكمة لتسوية بعض الامور الشكلية التى لاتتطلب أى اسراع ، وكان يتوقف فى الشارع ويتحدث الى كل المعارف الذين قابلوه. واشترى جريدتين من جرائد الصباح ولكنهما لم يكتبا كلمة عن حادث الليلة الماضية . وكان من الواضح أن أحدا فى بلنزونا ، لايعرف شيئا عن الحادث .

واستجمع دانيل شجاعته فى النهاية وفاتح محاميه فى الموضوع : لقد سمعت عن حدوث مشاجرة سياسية بين الايطاليين فى الليلة السابقة عند أطراف لوكارنو .

فأجاب المحامى : اذا كان ذلك قد حدث حقيقة ، فلا أحد يعرف عنه شيئا هنا ، ولا يمكن أن يكون حادثا خطيرا والا لكنا قد سمعنا به جميعا فالعلاقات بين الفاشست وأعدائهم متوترة هنا للغاية . وكان دانيل قلقا شديد القلق ، ولكن هذه الاجابة ردت اليه الطمأنينة ، فلا شك فى أن خيال لوكا قد بالغ فى تصوير الامر أكبر مبالغة . وقال دانيل لنفسه : ان هؤلاء الايطاليين رائعون كرماء على سجينهم ولكنهم يتكلمون كثيرا . ووصل به تفكيره الى أن الامور لم تزدد سوءا ، والا كان على أجوستينو وكاترينا أن يغادرا سويسرا . ودفعه ذلك الى أن يشعر بالضيق لانه اضطر الى أن يقضى ليلة بعيدا عن بيته كما أضاع يوم عمل كامل بلا ضرورة . وفى القطار فى طريق العودة كان بعض الفلاحين يناقشون موضوع الثعلب الذى يشن الغارات على الدجاج فى ماجادينو .

فقال أحدهم : ان الثعالب شديدة الدهاء ، أكثر دهاء من الانسان بكل فخاخه وقال آخر : هناك نوع جديد من الفخاخ ، اختراع ايطالى . فرد الاول قائلا : انه يصنع ضجة عظيمة ولكن لا جدوى منه . فقال دانيل : ان هذا صحيح .. انه يصنع ضجة عظيمة دون جدوى .. انه لايصنع الا ضجيجا هائلا.

***

صعد دانيل الى الطابق الاول بمجرد أن وصل الى البيت لكى يرى الجريح . وعلى باب الحجرة وجد سيلفيا تعترض الطريق واضعة اصبعها على شفتيها لكى

تحمله على الصمت ، وهمست فى أذنه « يجب ألا يتعرض المريض لاى ازعاج .. يجب ألا يستقبل زوارا أو يتبادل أية أحاديث . فقد قال الاطباء يجب ألا يستثيره أىشىء على الاطلاق» فقال دانيل خائب الامل : « اذن فليس هناك ماأستطيع القيام به » فهمست :«تستطيع أن تخلع حذاءك قبل أن تهبط الدرج حتى لا تحدث أية ضجة » .

وخلع دانيل حذاءه وهبط ثم خرج الى حديقة المنزل، وبدأ يعمل فى مكان ظليل خصصه للنجارة ، ومضى يقطع الاخشاب لتدعيم السور ، ولم يكد يبدأ حتىأقبلت سيلفيا تجرى وقد ارتدت خفين فى قدميها : « هل جننت يا أبى فى البيت رجل خطير الاصابة وأنت تصنع كل هذه الضجة ! » فألقى دانيل بفأسه بعيدا وسأل ابنته هامسا : « على الاقل .. هل أستطع عزق الارض ؟ » فأومأت سيلفيا برأسها موافقته ثم عادت الى الطابق الاول من جديد . أخذ دانيل أدواته وبدأ يعمل فى أحد جوانب البستان . ولم يمض زمن طويل حتى رأى ابنته الكبرى تغادر المنزل حاملة سلة فعاد فورا الى المنزل خالعا حذاءه ، وصعد الى أعلى فخرجت الممرضة من حجرة المريض ، وسمحت له بالدخول قائلة (لحظة واحدة فقط) ولم يستطع أن يرى فى سرير سيلفيا الضيق الا رأسا ضخما مغطى بالضمادات ، وعلى الرغم من أن ذلك المنظر لايعد مادة للسخرية فلم يستطع دانيل أن يبعد عن ذهنه صورة رجل الجليد ، فلم تكن أمامه الا كرة بيضاء ضخمة ، بها ثقب صغير مكان العين ، وثقب آخر أكبر قليلا مكان الفم .

وقالت الممرضة وهى تشير الى طريق الخروج : « هذا يكفى » وبينما دانيل يهبط متمهلا وحذاؤه فى يده قابل سيلفيا التى كانت قد عادت لتوها ، فسألته فى لوم : أين كنت ؟ ، فقال : « هل تكلمين والدك بهذه الطريقة » ، ثم عاد الى عمله فى البستان . وبينما هو مستغرق فى عمله خرجت اليه زوجته وبدأت شكاتها قائلة : « لقد فقدت سيلفيا عقلها ، فهى لم تغمض عينيها ولم تأكل شيئا منذ الامس » فأجاب دانيل « انها تتبع عقلها الحقيقى .. ان لها قلبا نبيلا » فقالت الام (قلبها نبيل أكثر مما ينبغى) فرد الاب : (كيف يحدث لاى انسان أن يكون قلبه نبيلا أكثر مما ينبغى ؟) . وكان دانيل معجبا بابنته فظل يرقبها يملؤه الاعجاب والخوف ، وكانت هناك بعض الازهار نامية فى ظل جدار البستان المتخصص ، وجاءت سيلفيا وقطفت بعضها لحجرة المريض . واعترضت فيلومنا فى هدوء : ولكنه لايستطيع رؤيتها ، فعينه تحجبها الضمادات ، فقالت سيلفيا : « ولكن ياأمى أنت تستطيعين رؤية الازهار حتى اذا كانت عيناك مغلقتين » .

وأنفق دانيل الجانب الاكبر من يومه يعمل فى كرومه فوق التل، وحينما عاد فى المساء سأل عن المريض فأخبرته سيلفيا أنه يتماثل سريعا للشفاء ، وأن الممرضة تم الاستغناء عنها وأنها هى ستمرضه بنفسها، وذهب دانيل ليراه مرة أو مرتين ولم تطل الزيارة عن لحظات قصيرة . وكان المريض يبدو رجلا مهذبا وديعا ، ورغم المشاغل الكثيرة التى تزدحم فى رأس دانيل فلم يستطع أن يمنع نفسه عن ملاحظة ما طرأ على سيلفيا من تغير .

وقالت له زوجته ذات مساء وهى

تؤنبه : « يجب أن تقلل بعض الشيء من اهتمامك بالاشياء الاخرى وأن تزيد من اهتمامك بابنتك » . أجاب دانيل : « ان سيلفيا لم تعد طفلة وهي فتاة عاقلة » فردت عليه زوجته ! « هي عاقلة ولكن لاخبرة لها بالحياة » وكانت الام تحس بالقلق منذ زمن ولكنها عزمت على أن تلقى به بعيدا عن صدرها ، وجلس دانيل يفكر ويطيل التفكير ثم سأل زوجته بعد لحظات : « هل تعتقدين أنني يجب أن أتحدث اليها » ؟ فأجابت الام « نعم » قبل أن يفوت الاوان » .

وفي اليوم التالي كان على دانيل أن يأخذ كيسا من بذور البسلة الى صديق في (كوما) في (فال فيرزاسكا) فاصطحب معه سيلفيا . ولم يكن هذا العمل الا ذريعة لما يريد فأنهاه على وجه السرعة ورفض كل أنواع الحفاوة التي قدمت اليه ، وقال الاصدقاء الذين قابلوه : أنا أفضل أن أقطع المسافة ماشيا مع ابنتي ، فهي تبدو شاحبة في الايام الاخيرة ، وفي حاجة الى استنشاق من المنعش ، كما أن ذهنها في حاجة الى مناقشة بعض المسائل .

وبدأ الاب والابنة السير في اتجاه جوردولا ، صامتين ، وكان الطريق يتعرج صاعدا أعلى النهر الذي يغطيه المزيد وهو يشق طريقه أسفل الوادي. وتساءلت سيلفيا : الا نستطيع السير بجوار النهر ؟ فأجابها دانيل لاأعتقد ؟ ولكنه كان يجب أن يقوم بما تريده ابنته فأضاف : نستطيع المحاولة ما دمنا لسنا في عملية فوجدا ممرا متحدرا كأنه السلم ، يتعرج ويتلوى ثم يهبط الى جوار النهر ، والنهر يلقى بتياره الذي يعلوه الزبد على أسواره الصخرية . وعلى مسافة قريبة كان النهر قد كون بحيرة من الماء الهادىء الصافي بلغ من صفائه أنك تستطيع أن ترى كل حجر في قاعه ولم يكن الاب وابنته قد تبادلا الا عبارات قصيرة لامعنى لها ودفع ذلك الصمت بدانيل أكثر مما دفعه أي شيء آخر الى أن يحقق من ضخامة التحول الذي طرأ على سيلفيا . وعلقت سيلفيا على ما حولها قائلة : يالها من أحجار جميلة ! مثيرة الى لسان رملي يمتد باتساع قدم تحت الماء . فأوضح لها الاب الامر قائلا : انه بيض السمك . ففي نهاية سبتمبر تترك الاسماك المناطق العليا من النهر وتسبح في اتجاه المصب ، وتبحث الاناث عن أماكن رملية لاتحيط بها الاخطار لتضع بيضها .. فهي تفسح بأذيالها مكانا بين الاحجار وتضع البيض الذي يلتصق بالصخور » ـ أهذه هي طريقة توالد هذا النوع من الاسماك ؟

ـ ان الذكور لاتلقح البيض الا بعد ذلك .. فالذكور تتبع آثار الاناث وتنشر سائلا لبنيا كثيفا فوق الاحجار التي يلتصق بها البيض ، ويبدأ الفقس بعد أيام » وظلت سيلفيا ترمق اللسان الرملي حيث تتحقق المعجزة والدهشة تملؤها وقالت : انه أمر رائع البساطة . ان الاسماك لاتذهب لعقد قرانها في الكنيسة يا ابنتي العزيزة . ولم يتبادلا في طريقهما الى المنزل الا تلك الكلمات .

وتساءلت زوجة دانيل هل تحدثت اليها ـ نعم ـ حسنا ؟ ـ لا شيء .

وذات يوم غادر المهندس الحجرة لاول مرة وتمدد في البستان فوق كرسي، وكانت كاترينا ودانيل عائدين معا من جوردولا حينما كان المهندس ينادي سيلفيا ، وما

أن سمعت كاترينا صوته حتى جمدت في مكانها لاتأتى بحركة ، ثم مضت تنظر من خلال السياج الذى يفصل الحديقة عن الطريق ، ثم قالت وجسمها يرتعد كله ، ياسيد دانيل ·· ياسيد دانيل ·· هذا الرجل هو الجاسوس الذى حدثتك عنه · فصاح دانيل · انت مجنونة وأخبرها كيف حملوا الرجل الى منزله فى غيابه · وعادت كاترينا من جديد الى السياج تتفحص الرجل المريض الذى كان يتحدث الى سيلفيا ويمازحها · ثم قالت « انه الرجل بكل تأكيد ـ أنا ذاهبة قبل أن يرانى » ، فقال دانيل ووجهه يعلوه الشحوب : « حسنا ·· اخبرى أجوستينو أن يأتى هنا ·· وسأعمل ما يجب حتى لايراه الرجل » وبعد لحظات جاءت سيلفيا وتحدثت الى والدها « ان مريضنا تحسن كثيرا ·· سيكون شيئا جميلا اذا ما تحدثت اليه فى بعض الاحيان وسترى أى رجل رائع قذفت به المصادفة الى منزلنا ·· فأجاب دانيل محاولا اخفاء مشاعره : بكل تأكيد · يجب أن أتحدث اليه ·· نستطيع جميعا أن نتناول العشاء معا ·

وأثناء العشاء كان الوضع متوترا ثقيلا ، فلم يكن دانيل يستطيع أن يتحمل رؤية هذا الرجل جالسا بين ابنتيه ، فاعتذر متعللا بصداع خفيف · وبعد دقائق لحقوا به وجلسوا جميعا فى البستان · وسأل المهندس الزائف مضيفه : « ما هى أخبار الجرائد ؟ اننى لم أر صحيفة منذ أسابيع · » فأجاب دانيل : تحدث مأساة كل يوم تقريبا ·· فقد كان هناك حادث من حوادث القطارات فى فرنسا بالأمس ·· ومات مئات من الناس » فقال (المهندس) ملتقطا كلمات دانيل : هناك مأساة كل يوم ولكن تلك الطريقة التى يسير بها الناس الى مصائرهم أشد وقعا من ذلك · ونتأخر مئات الناس الذين قتلوا فى حادث الأمس ، لقد كان هناك فى نفس القطار طلبة وفلاحون ومندوبون تجاريون وضباط وأطباء وباعة لوازم السيدات ومحامون · لقد كانوا فى نفس القطار ومع ذلك لم يكونوا فى نفس القطار · فالفلاحون كانوا يفكرون فى أسعار السوق والمحامون فى الاوسمة والضباط فى أن يجدوا لأنفسهم زوجات غنيات ، وكان الاطباء يتشاجرون فى الخيال مع عمالقراهم والطلبة يحلمون بأربطة عنقهم الجديدة أحلام يقظة ، فكل انسان كان يسافر فى قطاره الخاص ··· ففى المسائل الانسانية يسافر كل انسان فى قطاره الخاص وفجأة يجد الجميع أنفسهم فى قطار واحد ، قطار الموت · وتنتهى أربطة أعناق الطلبة تحت أحذية الفلاحين ويخترق سيف الضابط صدر المندوب التجارى ، وتختفى النماذج القديمة لباقى لوازم السيدات فى الدخان واللهب · لقد كانوا جميعا فى نفس القطار دون أن يشعروا ·

فقال دانيل « ولكن سلطات السكة الحديدية اسرعت بتحطيم الوحدة التى خلقها الموت ، فقد وضعت الجثث التى تلبس معاطف من الفراء وحدها بعيدا عن الجثث الأخرى · وسألت سيلفيا : اذن فمحكوم على الناس أن يكونوا أعداء حتى بعد وفاتهم ؟ فأجاب المريض : هناك هوة بين طبيعة الانسان ، وبين مصيره ، وبين ما يصنع منه المجتمع · لقد تملكتنى هذه الفكرة طول الوقت الذى كنت أصارع فيه الموت ·· كل منا يسافر فى

قطاره الخاص ومع ذلك فنحن جميعا فى نفس القطار

فأجاب دانيل : ان مجتمع اليوم يقوم على انفصال الانسان عن الانسان وعن التناحر بين الانسان والانسان . ان الكثرة الساحقة من البشر محرومة من نتاج عملها فما تكاد ثمار العمل تترك أيدى العاملين حتى لا تصبح ملكهم بل ملك أعدائهم ان ثمار العمل تصبح عدوا للعامل .. وتصبح الأشياء التى لاحياة فيها أوثانا يجب ان يركع أمامها الانسان . وتساءلت سيلفيا : هل يجب أن تستمر الأمور على هذا النحو ؟ وأجاب المريض : حينما كنت صبيا كنت آمل أنا أيضا فى نوع من المجتمع يختلف عن الذى نعيش فيه .

ونهض دانيل ومضى يعمل فى البستان ، فالربيع يقترب وأمامه عمل كثير فكان يدفع بالجاروف فى الارض غاضبا ، ويخطو فوقه بقدمه اليمنى ضاغطا بكل قوته ، ثم يقذف بقطعة الارض الرطبة ، وتناثرت على وجه دانيل القلق المعذب حبات كبيرة من العرق . وظل الجريح ممددا فى الحديقة حتى ظهرت أوائل النجوم فوق « مونت منفرى »

وقال فى هدوء مخاطبا العائلة التى تجلس حوله .. مضت سنوات كثيرة .. كثيرة منذ أن نظرت الى السماء آخر مرة .. فدخلت سيلفيا الى المنزل وعادت ومعها كتاب قائلة : أنت تذكرنى بالحدث الذى يصوره تولستوى فى الجزء الأول من الحرب والسلام ، فالأمير اندريه كان قد جرح فى نوفمبر عام ١٨٠٥ فى معركة بين الروس والفرنسيين وهذا مايقوله تولستوى عنه : ـ

« ثم فتح عينيه مرة ثانية آملا أن يكتشف نتيجة الصراع بين جندى المدفعية والرجلين الفرنسيين ، وأن يعرف هل قتل جندى المدفعية أحمر الشعر أم لايزال حيا ، وكان يريد أن يعرف أيضا هل استولى الاعداء على المدافع أم تم انقاذها . ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا الا السماء العالية فوق رأسه ، ولم تكن السماء صافية الآن ولكنها كانت بعيدة نائية تطفو السحب الداكنة فى رقة فوق صفحتها .. وقال الامير أندريه لنفسه : كم هى وادعة هادئة رائعة .. وما أبعدها عن صراخنا وتدافعنا وقتالنا ولم يكن موكب السحب الوقور الذى يعبر سماء لا حدود لها يمت بأية صلة الى صراع الجندى الفرنسى مع جندى المدفعية وقد ارتسمت الاستماتة والتحفز على وجهيها .. كيف حدث أننى لم أتطلع من قبل الى السماء .. وما أسعدنى الآن بتطلعى اليها بعد كل ذلك .. فكل شىء خادع خاو لا حقيقة فيه ماعدا لا نهائية السماء .. فبعيدا عنها لا وجود لشىء .. ولكن السماء نفسها لا وجود لها .. فليس هناك الا السلام والسكينة .. وليقبل الله شكرنا على ما منحنا » . وكان القمر قد أشرق غامرا وادى ماجادينو بطوفان من نوره . وقالت لوبزا ان للقمر عينين وأنفا مثلنا ، فقالت سيلفيا لأختها الصغيرة تعلمها : هذه جبال وبحور

فقال (المهندس) : اذا كان سكان

القمر ينظرون الى الارض فى تلك اللحظة ، فلاشك فى أنها ستبدو لهم كما يبدو لنا القمر ، فكيف تبدو مدن الأرض الكبيرة اذا نظرنا اليها من تلك الأعالى ؟ ستصبح ايطاليا أشبه بالفصلة ـ وسويسرا أشبه بالنقطة ، علامتا ترقيم لا أكثر . وتساءلت لويزا : « وكيف يبدو موسوليني من كل هذا العلو ؟ وتساءلت دانيل أوكيف يبدو السعيد موتا .. وضحك الجميع وفى اليوم التالى حينما رأى دانيل صديقه أجوستينو قادما، ذهب الى لقائه وقاده الى المنزل من الباب الذى يقع على جانب البستان ، حيث كان المهندس ممددا فى ضوء الشمس . وصعد الرجلان الى حجرة لويزا واختبأ أجوستينو وراء الستارة ونظر الى الجاسوس دون أن يتعرض لان يراه . وهمس أجوستينو انه الرجل بعينه . ثم أضاف وهو يفرك يديه : «على اقل تقدير لن يفلت منا هذه المرة» فقال دانيل : «انت تمزح بكل تأكيد» . وكان صوت دانيل غريبا بحيث جعل اذنى أجوستينو تنتصبان فقال : ان الثعلب فى المصيدة ، فهل سندعه يفلت منها .. لقد وقع فى يدنا آخر الامر واحد من الذين اغتالوا رفاقنا فى ايطاليا فى السجون ومنافى الجزر وذلك دون أن نمد يدنا للامساك به ، فهل ندعه يفلت ؟ » وكان رنين الغضب واضحا فى صوت أجوستينو ، فأجابه دانيل فى هدوء : انه فى بيتى .. ضيفى » . وقال أجوستينو : انه جاسوس فرد دانيل بنفس الهدوء : لقد كان جاسوسا ، ولكنه الآن ضيفى .. أتى الى بيتى متوسلا أن نأويه باعتباره رجلا يحتضر .. ولقد شفى وهو فى منزلى . ولم يستطع أجوستينو ان يصدق اذنيه فقال : لماذا التردد ؟ أنت تعرف جيدا بأية وسائل يحاربنا الفاشست . انهم لايعترفون بأية قيم اخلاقية . فقال دانيل : أنا اعرف .. ولهذا السبب فلست فاشيا ـ لقد هزمنا لاننا نتمسك بالقيم الاخلاقية ـ ولكننا سننتصر بها .

وازاء هذا العناد لم يستطع أجوستينو الا أن يهز رأسه فى صمت ثم سأل : كم من الوقت سينفقه هنا ـ ربما قضى اسبوعا آخر فهو لم يزل شديد الضعف ـ اذن فهناك من الوقت مايكفى للحديث عنه قبل أن يفلت .

وكان دانيل قد قرر الا يقول شيئا لعائلته مما دار من حديث ، فهو لم يكن يريد أن يجعل القلق يساورهم ، وأخذ فى اعتباره ايضا الا يلاحظ ضيفه شيئا وكانت احدى اخوات زوجته قد وضعت لتعتنى بالمريض .

وقالت البنت الصغيرة للمهندس الزائف : أنت تقيم هنا منذ اسابيع ومع ذلك فأنت لم تركل مافى المنزل فأجاب حدث ذلك لاننى كنت الازم الفراش دائما .

وطافت به لويزا كل الاماكن ، المخزن الذى يضعون فيه البطاطس والبصل والفواكه وادوات الفلاحة ، وحجرتها الخاصة التى تقتسمها الآن مع سيلفيا واسترعى التفات المهندس صورة ذات اطار تزينها زهرتان حمروان من الورق :

– من هذا ؟

– مايتوتى

وجلس المهندس على كرسى .

–ومن هو مايتوتى ؟

– كان رجلا يقف الى جانب الفقراء لذلك قتله موسولينى .

– هل أنت معادية للفاشية ؟

– بطبيعة الحال .

– وسيلفيا ايضا ؟

– انها تفوقنى فى ذلك .

– ووالدك ؟

– انه يفوقنا جميعا فى عدائه للفاشية ولكنه لايتكلم انه رجل عمل .

ثم أخذته لويزا الى الطابق الثانى :

– هذه حجرة ابى وامى .

– وماذا عن هذه الحجرة التى هناك؟

– ليس مسموحا لاحد أن يدخلها .. أبى يمنع دخولها . فيهـا الكثير من الاوراق ولايريد أن يعبث بها أحد.

وعادت لويزا مـع المهنـدس الى الحديقة ، وامضى نصف سـاعة يزرع الممر ثم استقر على راى ، وذهب الى لويزا قائـلا : هل تسمحين بأن تقومى بارسـال برقيـة لى ؟ واعطى الفتـاة الرسـالة والنقـود وقال انـه متعب سيذهب الى فراشه فورا .

وفى اليوم التالى حملت سيلفيا ، أفكار المهندس ولكنها لم تتلق اجـابة فالباب كان مغلقا ، فلابد ان شيئا قد حـدث ، وبـدات سيلفيا فى الصـباح واقبلت السائلة كلها لترى ماالخبر . وحطم دانيل الباب . وكانت الحجرة فارغة والسرير مرتبا لم يمسسه احد واختفت الحقائب ، وصاحت سيلفيا : لقد ذهب واضـافت لويزا : لقد ذهب دون أن يقـول وداعا ، وقالت فيلومنا مشيرة الى الفـراش لابد انه رحل فى الليلة الماضـية ، وقفز دانيـل قفزتين وصل الى الطابق الثانى حيث سمعته أسرته يصرخ غاضبا كأنه مجنون وفى هديره العاصف كان يقول : اللص .. الوغـد .. الخائن .. لقـد اخـذ كل أوراقى .

واندفع الجميع الى الطابق الاعلى ، وكان كل شىء مبعـثرا . ومحتـويات الادراج ملقاه على الارض .

وفى هذه اللحظة أقبل أجوستينو ، ولم يكن يعرف شيئا عما حدث ولكنه كان شاحبا مضطربا . وقال دانيل : لقد فر الجاسوس فى الليلة الماضية ، آخـذا معه كل أوراقى ، وبينهـا تلك الأوراق عن حركة عبور الحدود ، يجب أن نحذر الرجال الذين سعبرون فورا ، ليس أمامنا دقيقة نفقدها .

فقال أجوستينو : قبض على ثلاثين عاملا فى محطة لويتو ، فى الصباح الباكر وكانوا جميعا قادمين الى سويسرا ليعملوا أثناء النهار ثم يعودوا الى ايطاليا وحملقت سيلفيا فى والدها أجوستينو ، فى ذهول وحيرة كما لو كانت ترى مشهدا تمثيليا .

وبدأت تصرخ باكية : لا .. لا .. ليس هذا صحيحا . ان الأمر مزاح .. قل يا أجوستينو . استحلفك بالله ان الامر ليس صحيحا .

واستجمع دانيل نفسه قائلا : يجب أن نفكر فورا فى انقاذ الذين لم يقبض

عليهم بعد . ثم خرج الرجلان مهرولين ولم يعد دانيل الا فى ساعة متأخرة من الليـــل .. وكانت فلومنـــا ولويزا جالستين بجوار الموقد ، وسيلفيا جالسة فوق صندوق فى نهاية المطبخ المظلم . وقال دانيل وهو واقف بجوار المطبخ : ان مهربينا قد قبض عليهم فى الصباح البـاكر ، وهاجم البوليس مستودعا للكتب عند الظهيرة ، وفتش البوليس منزل كاترينا . ويبدو أن أجوستينو قد قبض عليه وسيطرد من سـويسرا . ألم يأت البـوليس هنـا بعد ؟ فقالت فيلومنا لا . وجلس دانيل عند عتبة الباب . وهبط الليل وظهرت النجوم . وصاح الديك أول مرة ولكن أحدا لم يفكر فى الذهاب الى الفراش ، ولم يكن أحد راغبـا فى أن يذهب الى الطابق الاول الذى ظل يشـغله المهنـدس ، حتى البارحة . وصـاح الديك مرة ثانية ، وظلت فيلومنا ولويزا جالستين بجوار الموقد ، وسيلفيا جالسة فوق صندوق فى نهـاية المطبخ المظلم ، ظل دانيـل جالسـا عند العتبـة ، وكانوا جميعـا يشبهون ساهرين حول ميت مسجى فى فراشه . وصاح الديك مرة ثالثة .

ومزق الصمت صرخة حيوان حادة ، تشـبه نباح كلب يقـاسى آلاما مبرحة تلتها صيحات الدجاجات جميعا ، وقفز دانيل واندفع هابطا الى الحديقة متجها الى حظيرة الدجاج ، فرأى ثعلبـا قد أمسك الفخ بأحد مخالبه ، وكان الثعلب مقوس الظهر يحاول اسـتخدام أرجله الثلاث الطليقة فى تحرير الساق المقيدة ، وحينما رأى دانيل مقبلا بدأ يقفز فى جنـون من جانب الى آخـر غير عابىء بالسلسلة التى تمسك بالفخ . وصاح دانيـل « أخيرا » وأمسك بفأس ملقاة بجوار حظيرة الدجاج وبدأ يهوى بها على الثعلب كما لو كان يقتلع شجرة بلوط ، فانقض على رأس الثعلب وظهره وبطنه وسيقانه وواصل ضرباته حتى بعد أن تمزقت الجثة وتحولت الى كتلة دامية .